"إذا غامرت في شـــرف مـروم

فـلا تقنـع بما دون النجـوم"

- المتنبي -

محمود البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤):

فارس السيف والقلم

ولد محمود سامي البارودي في ٦ أكتوبر عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) في حي باب الخلق بالقاهرة لأبوين من أصل شركسي ينتميان إلى السلاطين المماليك الذين حكموا مصر قروناً من الزمان. وكان أجداده ملتزمي إقطاعية إيتاي البارود بمحافظة البحيرة. يعتبر البارودي رائد الشعر العربي الحديث الذي جدّد في القصيدة العربية شكلاً ومضموناً، ولقب باسم فارس السيف والقلم.

أتم دراسته الابتدائية عام ١٨٥١م ثم التحق بالمرحلة التجهيزية من المدرسة الحربية المفروزة، وانتظم فيها يدرس فنون الحرب، وعلوم الدين واللغة والحساب والجبر، وتخرج من المدرسة المفروزة عام ١٨٥٥م ولم يستطع استكمال دراسته العليا، والتحق بالجيش السلطاني.

عمل بعد ذلك بوزارة الخارجية وذهب إلى الأستانة عام ١٨٥٧م وأعانته إجادته للغة التركية ومعرفته اللغة الفارسية على الالتحاق بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية، وظل هناك نحو سبع سنوات ١٨٥٧-١٨٦٣، ثم عاد إلى مصر في فبراير ١٨٦٣م وعينه الخديوي إسماعيل معيناً لأحمد خيري باشا على إدارة المكاتبات بين مصر والأستانة.

ضاق البارودي برتابة العمل الديواني ونزعت نفسه إلى تحقيق آماله في حياة الفروسية والجهاد، فنجح في يوليو عام ١٨٦٣ في الانتقال إلى الجيش حيث عمل برتبة البكباشي العسكرية وأُلحقَ بآلاي الحرس الخديوي، وعين قائداً لكتيبتين من فرسانه، وأثبت كفاءة عالية في عمله. تجلت مواهبه الشعرية في سن مبكرة بعد أن استوعب التراث العربي، وقرأ روائع الشعر العربي والفارسي والتركي، فكان ذلك من عوامل التجديد في شعره الأصيل.

وبسبب فروسيته تلك- شعراً وحرباً- اشترك البارودي في الحرب التي قادتها مصر عندما عجزت الخلافة العثمانية عن قمع الثورة في جزيرة كريت عام ١٨٦٥، واستنجدت بجيش مصر لإخمادها، فلبت الاستغاثة واستمر في تلك المهمة لمدة عامين أبلى فيهما بلاء حسناً، وأثبت فيهما شجاعة عالية وبطولة نادرة. وكان أحد أبطال ثورة عام ١٨٨١م الشهيرة ضد الخديوي توفيق بالاشتراك مع أحمد عرابي، وقد أسندت إليه رئاسة الوزارة الوطنية في ٤ فبراير ١٨٨٢م حتى ٢٦ مايو ١٨٨٢م.

بعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم وضد الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢ قررت السلطات الحاكمة نفيه مع زعماء الثورة العرابية في ٣ ديسمبر عام ١٨٨٢ إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا حالياً).

ظل في المنفى بمدينة كولومبو أكثر من سبعة عشر عاماً يعاني الوحدة والمرض والغربة عن وطنه، فسجّل كل ذلك في شعره النابع من ألمه وحنينه. بعد أن بلغ الستين من عمره اشتدت عليه وطأة المرض وضعف بصره فقرر العودة إلى وطنه مصر للعلاج، فعاد إلى مصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٩٩م وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن، وأنشد أنشودة العودة التي قال في مستهلها:

أبابلُ رأي العين أم هذه مصرُ فإني أرى فيها عيوناً هي السحرُ

يقول الدكتور شوقي ضيف عن ريادة البارودي مصرياً وعربياً وحمله تاج الإحياء والتجديد:

"وبينما يعاني الشعر العربي في كل قطر من الأقطار العربية هذه المحنة- يقصد التكلس الشعري زمن المماليك والعثمانيين- التي تأخذ بأنفاسه، إذا مصر يقدر لها أن تكون أسبق الأقطار إلى النهوض به وبث الحياة فيه من جديد، لا عن طريق هؤلاء الشعراء وإنما عن طريق البارودي، الذي كان أمة وحده في عصره، والذي امتلأ طموحا بتحقيق مجد شعري تعنو له الوجوه، وقد ملك عليه الشعر قلبه، واستهوى لبه، فإذا هو يرفع لواءه، محررا له من قيوده الغليظة، وإذا هو يحمل شعلته إلى الأجيال الجديدة، وسرعان ماتوهجت وهجاً لا نزال نعيش فيه إلى اليوم".

و كتب عباس محمود العقاد كتابا عن (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي)، وأفرد للبارودي فصلا كاملا، تناول فيه شعره بالدراسة والتحليل، وقرر- أي العقاد - أن البارودي من الشعراء الذين ارتفعوا بالشعر المصري -بل والعربي - ارتفاعا لا يطاوله فيه أحد ممن سبقه، وعلل ذلك بأن الشاعرية مزية قد تنجم وحدها بين أقوام لا يقاربونها في العظمة.

يقول الأستاذ العقاد: "فإذا أرسلت بصرك خمس مئة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد. وهذه وثبة قديرة في تاريخ الأدب المصري ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة أو مقام الإمام".

توفي - رحمه الله- عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م.

وحري بنا - ونحن نتحدث عن البارودي- أن نذكر قصيدته المشهورة"أنشودة العودة" :

أَبَابِلُ رَأْيَ العَـــيْنِ أَمْ هَذِهِ مِـــصْرُ

فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عُيُونَاً هِيَ السِّحْرُ

نَوَاعِسَ أَيْقَظْنَ الهَوى بِلَوَاحِظٍ

تَدِينُ لَهَا بِالفَتْكَةِ البِيضُ وَالسُّمْرُ

فَلَيْسَ لِعَقْلٍ دُونَ سُلْطَانِهَا حِمَىً

وَلاَ لِفُؤَادٍ دُونَ غِشْيَانِهَا سِتْرُ

فَإِنْ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السِّحْرَ مَرَّةً

فَذَلِكَ عَصْرُ المُعْجِزَاتِ، وَذَا عَصْرُ

فَـــأَيُّ فُؤَادٍ لاَ يَذُوبُ صَـــبَـــابَةً

وَمُزْنَةِ عَيْنٍ لاَ يَصُوبُ لَهَا قَطْرُ؟

بِنَفْسِي -وَإِنْ عَـزَّتْ عَلَيَّ- رَبِيبَةٌ

مِنَ العِينِ فِي أَجْفَانِ مُقْلَتِهَا فَتْرُ

فَتَاةٌ يَرِفُّ البَدْرُ تَحْتَ قِنَاعِهَا

وَيَخْطِرُ فِي أَبْرَادِهَا الغُصُنُ النَّضْرُ

تُرِيكَ جُمَانَ القَطْرِ فِي أُقْحُوَانَةٍ

مُفَلَّجَةِ الأَطْرَافِ، قِيلَ لَهَا ثَغْرُ

تَدِينُ لِعَـيْنَيْـهَـا سَـوَاحِـرُ " بَابِـلٍ

وَتَسْكَرُ مِنْ صَهْبَاءِ رِيقَتِهَا الخَمْرُ

فَـيَـا رَبَّةَ الخِـدْرِ الذِي حَـالَ دُونَـهُ

ضَرَاغِمُ حَرْبٍ، غَابُهَا الأَسَلُ السُّمْرُ

أَمَـا مِنْ وِصَالٍ أَسْـتَـعِـيدُ بِـأُنْسِـهِ

نَضَارَةَ عَـيْشٍ كَانَ أَفْسَدَهُ الهَجْرُ؟

رَضِـيتُ مِنَ الدُّنْيَـا بِحُـبِّكِ عَـالِمَاً

بِأَنَّ جُنُونِي فِي هَوَاكِ هُوَ الفَـخْـرُ

فَلاَ تَحْسَبِي شَـوْقِي فُكَاهَـةَ مَـازِحٍ

فَمَا هُوَ إلاَّ الجَمْرُ، أَوْ دُونَهُ الجَمْرُ

هَوَىً كَضَمِيرِ الزِنْدِ لَوْ أَنَّ مَدْمَعِي

تَأَخَّرَ عَنْ سُقْيَاهُ لاَحْتَرَقَ الصَّدْرُ

إِذَا مَـا أَتَيْتُ الحَيَّ فَارَتْ بِغَـيْظِهَـا

قُلُوبُ رِجَـالٍ حَشْوُ آمَاقِهَا الغَدْرُ

يَظُنُّونَ بِي شَـــرًّا، وَلَسْتُ بِأَهْلِـهِ

وَظَنُّ الفَـتَى مِنْ غَـيْرِ بَيِّنَةٍ وِزْرُ

وَمَـــاذَا عَلَيْـــهِمْ إِنْ تَرَنَّـمَ شَاعِـرٌ

بِقَـافِيَـةٍ لاَ عَـيْبَ فِيـهَـا، وَلاَ نُكْرُ؟

أَفِي الحَقِّ أَنْ تَبْكِي الحَمَائِمُ شَجْوَهَا

وَيُبْلَى فَلاَ يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ حُرُّ؟

وَأَيُّ نَكِيـــرٍ فِي هَوَىً شَبَّ وَقْـــدُهُ

بِقَلْبِ أَخِي شَوْقٍ فَبَاحَ بِهِ الشِّعْرُ؟

فَلاَ يَبْـــتَـــدِرْنِي بِالمَلاَمَـةِ عَـاذِلٌ

فَـإِنَّ الهَـوَى فِـيـهِ لِمُعْـتَـذِرٍ عُذْرُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ فَضْلٌ عَلَى النُّهَى

لَـا ذَلَّ حَـيٌّ لِـلْـهَـوَى وَلَـهُ قَـدْرُ

وَكَيْفَ أَسُومُ القَلْبَ صَبْرَاً عَلَى الهَوَى

وَلَمْ يَبْقَ لِيْ فِي الحُبِّ قَلْبٌ وَلاَ صَبْرُ

لِيَهْنَ الهَوَى أَنِّي خَضَعْتُ لحُكْمِهِ

وَإِنْ كَانَ لِيْ فِي غَيْرِهِ النَّهْيُ وَالأَمْرُ

وَإِنِّي امْـرُؤٌ تَأْبَى لِيَ الضَّيْمَ صَوْلَةٌ

مَـوَاقِـعُـهَـا فِي كُلِّ مُـعْـتَـرَكٍ حُـمْرُ

أَبِيٌّ عَلَى الحِدْثَانِ، لاَ يَسْـتَـفِـزُّنِي

عَظِيمٌ، وَلاَ يَأْوِي إِلَى سَاحَتِي ذُعْرُ

إِذَا صُلْتُ صَـالَ المَوْتُ مِنْ وَكَـرَاتِـهِ

وَإِنْ قُلْتُ أَرْخَى مِنْ أَعِنَّتِـهِ الشِّـعْـرُ